الأصوات المتوسطة والأصوات الذلق
رأى فى المفهوم وبيان للخواص

الدكتور كمال محمد بشر*

ينماز الدرس الصوتى عند العرب من غيره من الدراسات اللغوية الأخرى باعتماده على الملاحظة والتجريب وأخذه منهج الوصف أساسًا فى التحليل وتسجيل الحقائق. وبذلك جاءت مادته (على الرغم من قلتها النسبية) واضحة فى جملتها وخالية من الاضطراب والتعقيد البادِيين فى أعمالهم الصرفية والنحوية. ومرد ذلك فى نظرنا أن منهج الوصف بمعناه الدقيق معنىّ دائما وأبدا بالإجابة عن السؤال : ماذا؟ أى الكشف عن الواقع الموجود بالفعل، ولا تعنيه فى قليل أو كثير الإجابة عن : لماذا؟، أى محاولة البحث عن الأسباب التى تكمن خلف هذه الظاهرة أو تلك. وواضح أن وصف الحادث الموجود بالفعل يصون الباحث من الوقوع فى مأزق التوهم أو الافتراض أو التأويل والتعليل، فى حين أن الجرى وراء الأسباب أو الأسرار (وقد تكون خفية ومختلفا فى تقديرها) فى مجال اللغة قد يؤدى إلى مجاوزة الحقيقة والدخول فى متاهات من شأنها التعقيد لا التوضيح.

ومبدأ الملاحظة والتجريب هذا قد اتبع فى النظر الصوتى منذ بداية التفكير **المعتد**

---

(١) أستاذ اللغة بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة.

(*مجلة البحوث والدراسات العربية، العدد ٢٥ ، يوليو/ تموز ١٩٩٦ ـ ص ص ٤٧ - ٦٥*).

به فى هذا المجال الذى وصلتنا أخباره عن الثقات. فهناك قصة أبى الأسود الدؤلى عندما وضع علامات الشكل أو الإعراب بالنقط، صونا للقرآن الكريم من اللحن والتحريف. فقد هداه فكره الصائب إلى تحديد ثلاث نقاط ووضعها فى مواقع مختلفة من الحرف، مبينا (وهذا هو المهم) قيمها الصوتية بالتجريب والنطق الفعلى، معتمدا فى ذلك كله على وضع الشفاه من فتح أو كسر (أى انفراج) أو ضم لها. ومن ثم جاءت تسمية الحركات الثلاث القصيرة بالفتحة والكسرة والضمة. وغنى عن البيان أن تصنيف الحركات فى الدرس الصوتى العام يعتمد ـ فيما يعتمد ـ حتى الآن على هذا المبدأ ذاته، ونعنى به وضع الشفاه وشكلها عند النطق بالحركات .

ونذكر بعد شيئا عن جهود الخليل بن أحمد فى تطبيق هذا المبدأ نفسه : نراه فى البدء عند صنع معجمه الفريد الموسوم «بالعين» يتذوق الحروف أحاد أحاد، ليصل من هذا التجريب إلى ترتيب حروف العربية حسب مخارجها. وقصة التذوق هذه معروفة مشهورة، وهى التى قادته فى النهاية إلى صنع ما صنع فى هذا الترتيب، وإن كان النظر الصوتى الحديث يختلف معه فى بعض مفردات هذا الترتيب. ولكن هذا الخلاف ـ كما ترى – لا ينفى اعتماد الرجل على **وصف أدائه الفعلى للأصوات**[1].

---

(١) قدمت تفسيرات متعددة لبيان سر الخلاف، فبعضهم يرجعه إلى احتمال التطور فى نطق بعض الأصوات وآخرون يرون أن تجاوزا فى الوصف وقع من الخليل. انظر تفصيل القول فى ذلك فى كتابنا «الأصوات العربية».

وقولنا : إن الخليل كان يتذوق الحروف «أحاد أحاد» يعنى أن هذا هو ما قام به فى البداية، وهذا لا ينفى الحقيقة الثابتة وهى أن الرجل كان أيضا ينظر إلى الأصوات من حيث هى مجاميع صوتية لمعرفة خصائص البناء الصوتى للكلمة، وهذا النظر كذلك كان مبنيا على التذوق.

وبطريق التجريد كذلك، ابتكر الخليل رموز الحركات القصار المعروفة لنا الآن (ـــَــــُــــِـــ). فقد هداه ذوقه لقيم هذه الحركات نطقا، أن يدرك ما بينها وبين الحركات الطوال (الألف والياء والواو فى نحو قال ـ يرمى ـ أدعو)، من علاقة «الجزئية أو البعضية والكلية». وقرر أنه لما كانت الحركات القصار أبعاض الحركات الطويلة نطقا، وجب أن تكون أبعاضها كتْبا. وكان له ما رأى وكانت لنا هذه الرموز التى توضع فوق الحرف أو تحته والتى استبدلها بنظام الشكل بالنقط الذى وضعه أبو الأسود.

وسار الخليل على الدرب ذاته (درب التجريب والتذوق) فى كل جهوده الصوتية التى سجل معظمها مقدمته لكتابه «العين». ثم جاء تلميذه النابه سيبويه فالتقط أعمال الشيخ ونظر فيها وتدبر فى الأمر، آخذا بمنهج أستاذه وخرج إلينا بدراسات صوتية ممتعة. تتفق أو تختلف عما جاء به الخليل فى قليل أو كثير.

نجح سيبويه فى استدراكه بعضا مما أهمله الخليل، كما نجح فى تعديل بعض من أفكاره، وامتاز سيبويه كذلك بكثرة التصنيفات والتعريفات للأصوات، وتقديم مصطلحات جديدة، ومحاولة تحديدها.

ومن أهم التصنيفات التى أتى بها سيبويه تصنيفه للحروف (الأصوات الصامتة = Consonants) إلى صنفين رئيسين. أشار إلى الأول منهما بقوله : «ومن الحروف **الشديد**، وهو **الذى يمنع الصوت أن يجرى فيه**، وهو الهمزة والقاف والكاف والجيم والطاء والتاء والدال والباء». وعبر عن الثانى بقوله: «ومنها الرخوة، وهى الهاء والحاء والعين والخاء والشين والصاد **والضاد** والزاى والسين والظاء والثاء والذال والفاء، وذلك إذا قلت الطس وانقض وأشباه ذلك، **أجريت فيه الصوت إن شئت**».

وواضح أن الفرق عند سيبويه بين القبيلين يتمثل فى امتناع جريان الصوت

(الهواء) أو وقوفه عند نقطة النطق بالصوت المعين فى المجموعة الأولى، وفى جريان الصوت (الهواء) فى الثانية. ونلاحظ أن سيبويه لم يشر إلى الانفجار الذى يعقب الوقفة فى نطق القبيل الأول ولم يحدد كيفية خروج الهواء عند النطق بالقبيل الثانى.

ومعلوم أن نطق الأصوات الأولى يتم بالتقاء أعضاء النطق التقاء تاما عند نقطة من نقاط النطق فيحبس الهواء لفترة قصيرة جدا، يعقبها انفجار مفاجئ سريع من خلال الفم، وأن إصدار الأصوات الثانية يحدث عند تضييق مجرى الهواء الخارج من الفم ضيقا من شأنه أن يسمح للهواء بالمرور ولكن بشيء من العسر، فيحدث احتكاكا مسموعا[1].

---

(١) جرى العرف الصوتى الحديث على الإشارة إلى أصوات المجموعة الأولى (الهمزة ـ القاف ـ الكاف.. إلخ) بالمصطلح «وقفات» Stops أحيانا، وبالمصطلح «انفجارية» Plossives فى أغلب الأحيان، وفقا للأخذ بظاهرة وقوف الهواء أو انفجاره، وكل من الاستعمالين صحيح وإن كان الأول ـ مصطلحا – أعم، كما سنرى بعد. والأدق استعمال المصطلحين معا للإشارة إلى هذه الأصوات. ومن اللافت للنظر أن جل الدارسين العرب المحدثين (إن لم يكونوا جميعا) يفسرون مصطلح سيبويه «شديد» بالانفجارى و«الشدة» بالانفجار. ومن ثم واجهتهم صعوبة ظاهرة فى هذا المجال. تتمثل هذه الصعوبة فى تفسير وضع سيبويه للجيم ضمن هذه المجموعة الشديدة (الانفجارية)، إذ من الثابت لدينا جميعا أن الجيم الفصيحة صوت مركب، أى مركب من عنصرين متصلين يحدثان فى موقع نطقى واحد، مكوِّنين معا وحدة متكاملة. هذه الوحدة المتكاملة تتمثل فى وقفة متلوة باحتكاك فى ذات الموقع وهى ما يشار إليها فى الكتابة الصوتية العالمية بالرمز (dj). وهذا الصوت المركب هو الذى نسمعه من مجيدى القراء فى مصر العربية، وهو ما اصطلح على تسميته حديثا بالجيم الفصيحة، للتفريق بينه وبين الصور النطقية الأخرى للجيم فى الألسن العربية قديما وحديثا. ومن ثم لجأ هؤلاء المفسرون «للشديد» فى كلام سيبويه «بالانفجارى» إلى حسبان الجيم فى قائمة سيبويه المذكورة تلك الصورة النطقية الأخرى الموسومة حديثا (بقصد التفريق فقط) بالجيم القاهرية. وهذه الصورة الأخيرة انفجارية لاشك فى ذلك، وهى المشار إليها فى الدرس الصوتى العام بالرمز (g)، كما فى نحو get فى الإنجليزية. والأولى بل الصحيح فى نظرنا تفسير «الشدة» فى كلام سيبويه «بالوقفة»، ونعنى بذلك وقوف الهواء وقفة ما عند النطق بالصوت المعين. وهذا يصدق على الجيم الفصيحة (dj) بصورة جزئية، إذ يبدأ نطق هذا الصوت بوقفة منتهية باحتكاك مباشر، فيأتى الصوت =

وانتقل بعد إلى تصنيفات فرعية لأصوات أخرى، أفرد لها إشارات خاصة، إدراكا منه أن لها «ذوقا» نطقيا مختلفا، وأن لها سمات لا تؤهلها للانضمام إلى واحد من الصنفين الرئيسين. من هذه الأصوات اللام والنون والميم والراء. وهى أصوات (وإن اختلفت فيما بينها فى بعض الخواص، كالمخرج مثلاً) تشترك فى مجموعها فى ملمح يميزها من بقية الأصوات الصامتة. هذا الملمح يكمن فهمه من عبارات سيبويه عند وصفه لها. يقول سيبويه : «ومنها المنحرف وهو حرف شديد جرى فيه الصوت (الهواء) لانحراف اللسان مع الصوت ولم يعترض على الصوت، كاعتراض الحروف الشديدة، وهو اللام، وإن شئت مددت فيه الصوت، وليس كالرخوة، لأن طرف اللسان لا يتجافى (لا يبعد) عن موضعه، وليس يخرج الصوت من موضع (مخرج) اللام، ولكن من مستدق (جانب) اللسان فويق ذلك». ويستمر سيبويه منتقلاً إلى النون

= مركبا. فكأن سيبويه أحس بهذا الجزء الأول من النطق (وهو الوقفة) ولم يلتفت إلى الاحتكاك المتمم لنطق الصوت، أو لعله لم يدركه.

وتفسير «الشدة» بالوقفة هو تفسيرنا نحن، وقد وفقنا إليه بعد إمعان نظر وتدبر كبيرين، وبعد أن كنا من مشايعى المفسرين للشدة بالانفجار. وهذا التفسير الذى رأينا ذو أهمية بالغة. إنه أولا يصحح خطأ شائعا ويؤكد دقة الرجل (سيبويه) وعمق نظره، وهو ثانيا يوضح لنا ما كان من الصعب علينا تذوقه من وصف سيبويه «للام والنون والميم والراء» بالشدة (انظر فيما بعد)، والقول بأن الجيم فى قائمة سيبويه هى «الجيم القاهرية» (g) قول غير دقيق، إذ أن هذا الصوت عده سيبويه (فى جملة كلامه) صوتا غير مستحسن. وأشار إليه بقوله «والجيم التى كالكاف». ومعروف ألا فرق بين هذا الصوت والكاف إلا الجهر فى الأول والهمس فى الثانى. ومن المحتمل أن يكون لهذا الصوت وجود فى العربية قديما، بل يقال إنه الأصل فيها ثم أصابه شئ من التطور (g dj)، واستقر الثانى فى الفصحى، وبقى الأول فى بعض اللهجات قديما وحديثا، وهو الأصل فى اللغات السامية جميعا، على ما نعلم (راجع قصة الجيم فى كتابنا «الأصوات العربية»).

بقى أن نشير هنا إلى أن «الضاد» ليست صوتا رخوا كما ذكر سيبويه، وإنما هو بحسب نطقنا الآن صوت «شديد»، سواء أفسرت «الشدة» بالوقفة أم بالانفجار. وللضاد قصة أخرى، راجعها فى كتب الأصوات الحديثة، ومنها كتابنا المذكور).

والميم، فيقول: «ومنها حرف شديد يجرى معه الصوت، لأن ذلك الصوت غنة من الأنف، فإنما تخرجه من أنفك واللسان لازم لموضع الحرف، لأنك لو أمسكت بأنفك لم يخرج معه الصوت وهو النون وكذلك الميم».

أما بالنسبة للراء فيقول: «ومنها المكرر، وهو حرف شديد يجرى فيه الصوت لتكريره وانحرافه إلى اللام فتجافى الصوت (أى بعد لإخراج الهواء) كالرخوة، ولو لم يكرر لم يجر الصوت فيه وهو الراء.

وتفسير كلام سيبويه هو أن اللام والنون والميم أصوات شديدة (أى وقفات، بتفسيرنا) من حيث إن الهواء عند إصدارها يقف عند نقطة النطق، ولكن هذا الهواء فى الوقت نفسه يخرج (أو يجرى بعبارة سيبويه) من منافذ أخرى. تتمثل هذه المنافذ فى جانبى الفم كما فى حال اللام وفى الأنف فى حال النون والميم. ومعنى هذا أن هذه الأصوات الثلاثة تقع فى إطار الأصوات الشديدة من جانب، ولكنها مع ذلك تنفرد من جانب آخر بسمات نطقية أخرى مهمة، هى جريان الهواء وخروجه حراً طليقاً من منافذه عند النطق بها، **بدلا من خروجه منفجراً من موضعه**، أى من نقطة النطق بعد الوقفة، كما هو الحال فى بقية الشديدات.

وكذلك الحال مع الراء، حيث يحدث عند النطق بهذا الصوت وقوف الهواء عند مخرجه، وجريان له وخروج، وإن كان هذا الوقوف وذاك الجريان يحدثان متكررين.

يؤخذ من هذه السمة، سمة جريان الهواء وخروجه من منافذه، (سواء أكان ذلك بحرية تامة، كما فى اللام والنون والميم، أم بحرية نسبية، كما فى الراء)– يؤخذ من هذه السمة أمر غاية فى الأهمية. ذلك أن هذه الأصوات الأربعة (والثلاثة الأولى منها بوجه خاص)، على الرغم من شدتها أى وقوف هوائها عند النطق، **تنحو بسمتها** تلك (سمة جريان الهواء) **نحو** الأصوات **الرخوة أو تكاد** تشبهها، ولكنها ليست

منها. إنها تنحو نحوها أو تكاد تشبهها فى ملمح واحد، هو **مطلق مرور الهواء وخروجه من مخرج ما لا وقوفه**، كما هو الحال فى الأصوات الشديدة. ولكن هناك فرقا (وهو فرق كبير). يظهر هذا الفرق فى كيفية خروج الهواء ونوعية مروره. فبينما يخرج هواء الأصوات الأربعة ويجرى فى منافذه **حرًا طليقا دون عائق** (سواء أكان الجريان مستمراً، كما فى اللام والنون والميم أم منقطعًا، كما فى الراء) يخرج هواء الأصوات الرخوة متعسراً، معوقًا عوقًا جزئيًا، لمروره من منافذ ضيقة من الفم، تسمح للهواء بالمرور وإن بشيء من العسر، بحيث يحتك بأعضاء النطق ويحدث حفيفًا مسموعًا. ومن هنا سميت هذه الأصوات الرخوة بالأصوات الاحتكاكية فى النظر الحديث.

ولعل انتحاء هذه الأصوات الأربعة الشديدة نحو الأصوات الرخوة وبدوّ اقترابها منها فى خاصة مطلق مرور الهواء، لا انفجاره بعد الوقفة ـ لعل هذا هو الذى دفع علماء العربية فيما بعد سيبويه إلى تسميتها أو نعتها بالأصوات «البينية» أو «المتوسطة» أى المتوسطة بين الشدة والرخاوة. إنها ـ فى رأيهم ـ من طائفة الأصوات الشديدة من جهة، ولها نسب قريب وصلة وثيقة بالأصوات الرخوة من جهة أخرى.

وواضح على كل حال أن أساس هذه التسمية وذاك النعت يرجع الفضل فيه إلى سيبويه الذى يعد أول من لمح هذه الخواص لهذه الأصوات الأربعة[1]. زد على هذا أن

---

(١) لمح الخليل من قبله سمة أخرى لهذه الأصوات ذاتها (وغيرها، انظر فيما بعد)، وهى خفتّها وسهولتها فى النطق، وسماها «الأصوات الذلقية» أو المذلقة.

سيبويه نفسه قد صرح بهذه «**البينية**» عند إشارته إلى **صوت العين**، ذلك الصوت الذى ضمّه سيبويه (وغيره) إلى هذه الأصوات. يقول سيبويه : «وأما العين فبين الرخوة والشديدة». فصارت الأصوات «البينية» أو «المتوسطة» خمسة، يجمعها قولهم «لن عمر» أو «لم نرع». ويبدو من كلام سيبويه عن صوت العين أنه أحس بأن هناك فرقًا من نوع ما بينه وبين الأصوات الأربعة (اللام ـ النون ـ الميم ـ الراء). ودليل ذلك أنه أفرد له كلامًا مستقلاً بادئًا بالأداة «أما» التى تدل على مغايرة اللاحق للسابق، وأنه نعته «بالبينية» بالتصريح، بخلاف الحال فى الأربعة الأولى ـ حيث اكتفى فيها بتسجيل خواصها المتراوحة بين الشدة والرخاوة. والأهم من ذلك كله أن سيبويه لم ينعت العين بالشدة، ولم يحاول ضمها أو نسبتها إلى الأصوات الشديدة، على العكس تمامًا مما صنع بالأصوات الأربعة.

وما فعله سيبويه هنا أمارة الإدراك الواعى لقيم هذه الأصوات وعمق «التذوق» لخواصّها النطقية. ذلك أن الدرس الصوتى الحديث يقرر مؤكداً أن صوت العين لا علاقة له بالأصوات الشديدة (**الوقفات**) من قريب أو بعيد، وأنه ـ بمعايير التصنيف المقررة للأصوات ـ **صوت رخو**، باصطلاحهم أو احتكاكى بالاصطلاح الحديث. غاية الأمر أن هذا الصوت الاحتكاكى (الرخو) نفسه هو أقل الأصوات الاحتكاكية احتكاكًا، وذلك لاتساع مجرى هوائه نسبيًا، إذا قورن ببقية الأصوات الاحتكاكية. فصوت العين إذن فيه شبهة الابتعاد عن الأصوات الرخوة وانتمائه فى الوقت نفسه نحو قبيل آخر، هو قبيل الأصوات التى يخرج هواؤها حراً بصورة أو بأخرى (وهى اللام والنون والميم والراء)، ومن ساغ لسيبويه نعت العين «بالبينية».

ويمكن أن توجه شبهة من نوع آخر إلى صوت الراء. ذلك أن هواء هذا الصوت (كما قرر الجميع) لا ينفذ بحرية **مستمرة**، وإنما ينفذ **متقطعًا** نتيجة الوقوف والخروج. هذه السمة النطقية من شأنها أن تضعف انتماء هذا الصوت إلى قبيل اللام وأخواتها، وتقرّبه من الأصوات ذات الهواء المعوق جزئيًا وهى الأصوات الرخوة

(الاحتكاكية).

ويبدو أن هذه الشبهة قد خالت على سيبويه، حيث نراه عند وصف الراء يشبه خروج هوائها بهواء الأصوات الرخوة. يقول سيبويه ضمن ما يقول فى وصف هذا الصوت: «... هو حرف **شديد يجرى فيه الصوت** لتكريره وانحرافه إلى اللام فتجافى للصوت (أى بعد اللسان لإخراج الهواء) **كالرخوة**». ومعناه أن صوت الراء ـ على الرغم من حسبانه صوتاً شديداً (أى وقفة)، فإن تكرار خروج هوائه وقطع هذا الخروج المتكرر للوقفة، يقرّبه ـ نوع قرب ـ من الأصوات الرخوة (الاحتكاكية).

وهذه الشبهة ذاتها قد أوقعت بعضهم فى اضطراب، يبدو فى ترددهم فى وصف الراء ونسبتها إلى طائفة معينة من الأصوات. فهذا ابن الجزرى مثلاً ـ بعد حسبانه الراء صوتاً متوسطاً بين الشدة والرخاوة ويضمها إلى أخواتها الأربع، بقوله «ويجمعها قولك «لن عمر»ـ يعود فينزعها من هذه المجموعة وينسبها إلى الأصوات **الرخوة** (الخالصة). وهذه عبارات ابن الجزرى الدالة على التردد فى الحكم على هذا الصوت: «والمتوسطة بين الشدة والرخاوة خمسة يجمعها قولك «لن عمر». ثم يقول بعد فى مكان آخر: «والمجهورة **الرخوة** خمسة الغين والضاد والظاء والذال المعجمات **والراء**»[1].

ويبدو أن ابن الجزرى قد ساوره شىء من الشك فى حسبانه الراء صوتاً رخواً (خالصاً)، فانتحى نحو عبارة سيبويه التى أوردناها سابقاً والتى تكتفى بتشبيه خروج هواء الراء بهواء الأصوات الرخوة، فقال: «وقال سيبويه وغيره هو حرف شديد جرى فيه الصوت لتكريره وانحرافه إلى اللام فصار كالرخوة». ولم يكتف ابن الجزرى بهذا، بل أتبع ذلك بقوله : «وقال المحققون هو (أى الراء) بين الشدة والرخاوة[2]». وهكذا

---

(١) النشر فى القراءات العشر ، جـ ١ ص ٢٠٢.

(٢) ابن الجزرى ، السابق ، ص ٢٠٤.

يصحح نفسه بنفسه أو يكاد يصنع ذلك بتسجيله رأى المحققين.

ومهما يكن الأمر، فهذه الشبهة التى تراءت لكل من سيبويه وابن الجزرى بالنسبة لموقع الراء من الأصوات، شبهة لا مسوغ لها، حيث إن خروج هواء الراء يتم بحرية وإن كان متقطعًا، فى حين يخرج هواء الأصوات الرخوة ممتداً محتكًا بأعضاء النطق لوجود عائق جزئى يتمثل فى ضيق مجرى الهواء. وليس للراء نصيب من هذا الاحتكاك مطلقًا. على أن سيبويه نفسه مازال (بعبارته) ينبئ عن بعد الراء عن الأصوات الرخوة، وذلك بوصفه لها **بالشدة**، وشتان ما بين القبيلين.

فالأصوات المتوسطة إذن عندهم خمسة. وزاد ابن جنى عليها ثلاثة، وهى الألف والياء والواو، وسماها جميعًا «الحروف التى بين الشديدة والرخوة» وأشار إليها بقوله «لم يروعنا» و«إن شئت قلت لم يروعنا وإن شئت قلت لم يرعونا»[1].

وهذا الذى رآه ابن جنى هنا غير دقيق من وجهة نظرنا، ومن جهة نظر معيار «البينية» كما قرّره سيبويه وغيره. ذلك أن الألف هنا (فى عباراته الثلاث) **حركة خالصة** (وهى الفتحة الطويلة)، والكلام فى هذا الباب كله مُنْصبٌّ على مجموعة من الأصوات **الصامتة** (أو الحروف بعبارتهم) التى تعد فى نظر الكافة قسيماً ومناظراً للحركات، لا جزءاً منها ولا منتمية إليها. وبهذا تخرج الألف نهائيًا من الأصوات المتوسطة.

وكذلك الياء والواو ليستا من الأصوات المتوسطة بالمعيار الذى قرره سيبويه. هذا المعيار ـ كما هو واضح مما سبق ـ يتمثل فى اتّسام نطق الصوت المتوسط بالشدة (الوقفة) **وبالرخاوه** المتزامنة، ممثلة هذه الرخاوة فى مرور الهواء بصورة من الصور من منافذ معينة. وواضح أن الياء والواو فى عبارة ابن جنى – وإن كان خروج الهواء عند

---

(١) سر صناعة الإعراب لابن جنى، جـ ١، ص ٧٠.

نطقها فيه شبهة الاقتراب من هواء بعض الأصوات الرخوة (الاحتكاكية)ـ لا علاقة لهما **البتة بالشدة** (الوقفة). الواو والياء فى العبارات «الجنّية» السابقة تصنّفان أنصاف حركات، وهذا هو حكم هذين الصوتين دائمًا إذا أتبعا بحركة أو وقعا ساكنين بعد فتح، كما فى حوض وبيت، (ولكنهما حركتان خالصتان (طويلتان) فى مثل أدعو – القاضى).

ومع ذلك فمازالت هناك شبهة تسوغ لابن جنى ما صنع بالنسبة لهذين الصوتين (الياء والواو). ذلك أن طريقة خروج هوائهما عند النطق تقربهما من الأصوات المتوسطة (ل م ن ر) فى ظاهرة سمعية، هى قوة الوضوح السمعى. ولعل هذه الظاهرة نفسها هى التى دعت بعض الباحثين إلى نظمهما فى سلك ما سموه الأصوات «الرنانة» أو «الرنينيات» Zesonants (وهى اللام والنون والميم والراء والواو والياء). ورأينا أن صوتى الواو والياء (المتبوعين بحركات أو الساكنين بعد فتح) الأولى بهما أن يصنفا قسمًا مستقلاً من الأصوات الصامتة، له شبه بالأصوات المتوسطة من جهة وبالحركات من جهة أخرى. (انظر القول فى الواو والياء فى كتابنا «الأصوات»).

ينتهى القول بنا إذن إلى تقرير أن الأصوات المتوسطة التى تحققت فى نطقها المعايير التى وضعها سيبويه هى باتفاق الجميع أربعة: اللام والنون والميم والراء، بعد نزع العين والواو والياء (والألف بالطبع) من هذا القبيل، لانتفاء بعض الخواص التى تنتظمها هذه المعايير.

وواضح من جملة ما قدمنا أن علماء العربية يقصدون بتوسط هذه الأصوات توسطها بين الشديدة (الوقفات) والرخوة (الاحتكاكيات)، لانتظامها شيئًا من خواص كل من القبيلين معًا، ومن ثم كانت التسمية الأخرى المشار إليها «البينية».

أما نحن فلنا رأى آخر فى تفسير هذا المصطلح، وإن كنا نتفق معهم فى جملة ما

قرّروه بالنسبة للخواص المميزة لهذه الأصوات الأربعة. هذه الخواص تسوغ لنا تفسير التوسط بواحد من اثنين.

الأول حسبان هذه الأصوات متوسطة بمعنى أنها تشكل قسيمًا **ثالثًا** من الأصوات الصامتة Consonants، وهو قسيم مستقل عن الشديدة والرخوة كلتيهما. ذلك لأن الخواص النطقية لهذا القسيم ـ وإن كان بعضها يوحى بشبه من نوع ما لبعض أصوات القسيمين الآخرين ـ تمثل كلاً متكاملاً أو بنية نطقية متكاملة تميز هذه الأصوات من غيرها، وتحيلها ضرباً مستقلاً بنفسه.

الثانى اللام والميم والنون والراء أصوات متوسطة، نعم. ولكن هذا التوسط ليس بين الأصوات الشديدة والأصوات الرخوة، وإنما بين الأصوات الصامتة **جميعا** (الشديدة والرخوة) والحركات.

فهذه الأصوات الأربعة مازالت من الصوامت Consonants بحكم المعايير الأساسية للتصنيف، ولكنها فى الوقت نفسه ذات شبه كبير ونسب قريب بالحركات من الناحيتين النطقية والسمعية. يتبين لنا ذلك من جملة الخواص الآتية :

١ – اللام والميم والنون تشترك مع الحركات فى أهم خاصة من خواصها النطقية، وهى حرية مرور الهواء، دون أى عائق أو مانع. والفرق هو أن هواء الحركات يخرج من الفم، فى حين يخرج هواء اللام مع جانبى الفم وهواء الميم والنون من الأنف. أما هواء الراء – وإن كان يخرج من الفم متقطعًا ـ فما يزال يشبه هواء الحركات فى حرية الخروج، كلما انفصل اللسان عن نقطة النطق.

٢ – اللام والميم والنون والراء كلها مجهورة، شأنها فى ذلك شأن الحركات.

٣ – هذه الأصوات الأربعة تشبه الحركات فى خاصة سمعية مهمة، تتمثل فيما يعرف بالوضوح السمعى Sonority، وذلك نتيجة طبيعية لحرية مرور الهواء عند نطق هذه الأصوات جميعًا.

لهذا نرى نعت هذه الأصوات الأربعة بنعت ينبئ عن هذه الخواص المهمة ويشير فى الوقت نفسه إلى خصوصياتها وتشكيلها قسماً منفرداً من الأصوات الصامتة. هذا النعت هو «أشباه الحركات».

وهناك شواهد أخرى فى التراث الصوتى تدل على خصوصية هذه الأربعة. من ذلك مثلاً ما يراه الدكتور إبراهيم أنيس من أن أكثر الأصوات **توظيفًا فى الروى** هى، (بهـــذا الترتيب): «**الـراء والـلام والميم والـنون**» ثم (الباء والـدال والسين والعين). واختيار هذه الأصوات فى الروى دليل امتيازها بقوة الإسماع الذى يزيد من روعة موسيقى الشعر ونغمات الإنشاد. ومن هذه الشواهد كذلك أن اللام والميم والنون والراء انفردت (مع الفاء والباء) بتشكيل نمط خاص من الأصوات، عرف بأصوات «الذلاقة» أى أصوات (فى مفهومها البلاغى والأدائى) تنماز بسهولة النطق وخفته، كما تنماز بكثرة التوظيف فى اللغة (انظر فيما بعد).

ومن الطريف أن ما يقابل هذه الأربعة فى لغات أخرى يفصح عن هذه الخواص ونحوها. جرت الدراسات الصوتية التقليدية على تسمية اللام والراء بالأصوات «السلسة أو الليّنة» Liquids (ويترجمها بعضهم خطأً بالمائعة)، وتنسحب هذه التسمية أيضا على الميم والنون عند بعض الدارسين، ويطلقون عليها جميعًا «أشباه الحركات» Vowel like consonants، كما قررنا سابقاً.

ويزيد من تعميق الشبه بين هذه الأصوات والحركات إطلاق المصطلح «الصائتية» Vocalic عليها، نسبة إلى «صائت»، وهو الحركة فى عرف الجميع بلا منازع. وقد يشار إليها كذلك بالمصطلح بالأصوات «المقطعية» Syllabic. وهى فى هذا تقف على قدم المساواة مع الحركات، إذ الحركات – كما هو معلوم – تمثل قمة المقاطع. ومن الجدير بالذكر أن صوتى (M,L) فى اللغة الإنجليزية يشكلان مقاطع بذواتهما أحيانا كما فى مثل Little و Bottom.

كل هذا الذى تقدم يسوغ لنا قبول المصطلح «الأصوات المتوسطة» ولكن بتفسير التوسط بأنه بين الأصوات الصامتة جميعًا (شديدة ورخوة) والحركات أو الصوائت Vowels. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، رأينا نعتها بمصطلح جديد ينبئ عن خواصها المميزة التى تنحو بها نحو الحركات، فسميناها «أشباه الحركات».

وقد اكتشف العرب أن لهذه الأصوات الأربعة (ل. م. ن. ر) خاصة أخرى تنضاف إلى مميزاتها التى شكلتها صنفًا قائمًا بذاته فى إطار الأصوات الصامتة. هذه الخاصة الأخرى عبروا عنها فى القديم بوصفها «بأصوات الذلاقة».

هذا المصطلح (وما اشتق منه : الأصوات الذّلق – الذليقة إلخ) ابتكره الخليل بن أحمد وأطلقه على هذه الأصوات الأربعة منضمًا إليها الباء والفاء، وعبروا عن الجميع بقولهم «مر بنقل أو فر من لب».

وما إن ظهر هذا المصطلح فى كتاب «العين» حتى تلقفه علماء العربية وغيرهم ممن عنوا بفن القراءة والإقراء، وأخذوا فى تفسيره، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى، أشهرها اثنان.

الأول يرى فريق منهم أن «الذلاقة» ذات مفهوم بلاغى يتعلق بسهولة النطق وذرب اللسان وحدته. ولكن أصواتها عند هذا الفريق تتوزع على منطقتين من مناطق النطق: ثلاثة «ذولقية» أو «ذلقية»ـ نسبة إلى ذلق اللسان أى طرفه– وهى الراء واللام والنون، وثلاثة شفوية وهى الباء والميم والفاء.

ويفهم هذا الكلام من رواية الأزهرى فى التهذيب عن الخليل حيث يقول: قال (يعنى الخليل) : والحروف الصحاح على نحوين: منها مذلق ومنها مصمت. فأما المذلقة فإنها ستة أحرف فى حيزين : أحدهما حيز الفاء، فيه ثلاثة أحرف كما ترى: ف ب م، فمخارجهما من مدرجة واحدة لصوت بين الشفتين لا عمل للسان فى شىء منها. والحيز الآخر حيز اللام، فيه ثلاثة أحرف، كما ترى، ل ر ن، مخارجها

من مدرجة واحدة بين أسلة اللسان ومقدم الغار الأعلى. فهاتان المدرجتان هما موضع الذلاقة، وحروفها أخف فى النطق وأكثرها فى الكلام وأحسنها فى البناء.

الثانى : يرى فريق آخر أن مصطلح الذلاقة يعنى صفة مخرجية، فيطلقه على هذه الأصوات الستة، ولكن بالنسبة إلى مخارجها، بقطع النظر عما يرتبط بها من خفة وسهولة فى النطق «يقول ابن سنان الخفاجى: ومن الحروف «حروف الذلاقة». ومعنى الذلاقة أن يعتمد عليها بذلق اللسان وهو طرفه. وذلق كل شىء حده. وهى ستة أحرف اللام والراء والنون والفاء والباء والميم».

وهذا الاتجاه نفسه أخذ به ابن جنى وغيره من الدارسين، على أساس أن هذه الحروف يعتمد عليها «بذلق اللسان وهو صدره وطرفه».

وهناك من الدارسين من ينهج نهج هذا الفريق الثانى فى نسبة هذه الأصوات جميعها إلى ذلق اللسان أو طرفه، ولكنهم فى الوقت نفسه يخلعون عليها صفة الخفة والحسن فى الأداء. يقول صاحب الجمهرة: «وسمعت الأشنانداني يقول: سمعت الأخفش يقول: سميت هذه الحروف مذلقة لأن عملها فى طرف اللسان وطرف كل شئ ذلقه. وهى أخف الحروف وأحسنها امتزاجا بغيرها[1]».

هذا الحكم الذى قرره الخليل بالنسبة لعروبة هذه الأبنية أو عدم عروبتها ينسحب على البناء الخماسى مطلقا دون استثناء. وأما البناء الرباعى فقد أشار الشيخ إلى جواز

---

(١) من الواضح أن نسبة الحروف الثلاثة الفاء والباء والميم إلى ذلق اللسان نسبة فيها تجاوز بل غير صحيحة، إذ لا دخل للسان ألبتة فى نطق هذه الحروف ولذلك كان ابن الجزرى أدق من غيره حين قرر (النشر جـ ١ ص ٢٠) أن حروف الذلاقة ثلاثة فقط هى اللام والراء والنون وقال: «هذه الثلاثة يقال لها» ذلقية نسبة إلى موضع مخرجها وهو طرف اللسان، إذ طرف كل شئ ذلقة».

وقوع كلمات منه خالية من هذه الحروف، ولكنها كلمات قليلة، ولها فى الوقت نفسه سمات معينة، بحيث تقع فى واحدة من الإمكانات التالية :

١ – يخلو البناء الرباعى من حروف الذلاقة، لكن مع وجوب احتوائه على صوتى العين أو القاف، وذلك ـ كما قرر هو ـ لما يتسمان به من طلاقة ووضوح جرس، كما فى نحو «المسجد والقداحس».

٢ – إذا كان البناء الرباعى اسماً فمن الجائز خلوه من حروف الذلاقة، ولكن مع اشتماله على السين أو الدال مع لزوم العين أو القاف. وسوغ هذا فى نظره أن «الدال لانت عن صلابة الطاء وكزازتها وارتفعت عن خفوت التاء فحسنت. وصارت حال السين بين مخرج الصاد والزاى فعذبت».

٣ – إذا كان بناء الرباعى مؤلفاً لحكاية الأصوات جاز خلوه من أحرف الذلاقة، ولكن مع لزومه الهاء فاصلة بين حروفه المتشابهة مع لزوم العين أو القاف، كما فى «دهداق».

٤ – أما بناء الرباعى المضاعف فقد توسعوا فيه قليلاً، إذ يجوز خلوه من حروف الذلاقة وبخاصة إذا كان «حكاية مؤلفة» لتقليد الأصوات أو الأحداث المعبر عنها بهذا البناء، كما فى «الضكضاكة» من النساء، وذلك لأن الحكاية المضاعفة يجوز فيها «مالا يجوز فى غيرها من تأليف الحروف». أو بعبارة أخرى، لأن المضاعف (للحكاية) «يجوز فيه كل غث وسمين من المفصول الأعجاز والصدور وغير ذلك».

هذه المعايير الصوتية الرائعة فتحت مجالاً واسعاً أمام الدارسين، ومكنتهم من تعرف الكلمات الأجنبية تعرفًا علميًا عن طريق النظر فى خواصها الصوتية. وما كان ذلك ليقع لهم إلاّ بفضل الخليل الذى أدرك بثاقب نظره قيمة هذه الأصوات الستة التى شغلته وشغلت الباحثين من بعده.

وقد انتقل هذا المبدأ المهم إلى أعمال من خلفوه الذين تأكد لهم صدق ما قرره

الشيخ الأول. من هؤلاء ابن جنى الذى صرّح بما صرح به الخليل، وإن كان ذلك فى عبارة أوضح وأسهل منالاً. يقول ابن جنى فى كتابه «سر صناعة الإعراب»: «وفى هذه الحروف الستة (حروف الذلاقة) سر طريف ينتفع به فى اللغة. وذلك أنك متى رأيت اسمًا رباعيًا أو خماسيًا غير ذى زوائد، فلابد فيه من حرف من هذه الستة أو حرفين وربما كان فيه ثلاثة».

ثم ينتقل إلى بقية القصة مقرراً أنك إذا «وجدت كلمة رباعية أو خماسية معراة من بعض هذه الأحرف الستة فاقض بأنه دخيل فى كلام العرب وليس منه. وربما جاء بعض ذوات الأربعة معرى من بعض هذه الستة، وهو قليل جداً، منه «العسجد والعسطوس والدهدقة والزهزقة، على أن العين والقاف قد حسنتا الحال لنصاعة العين ولذاذة مستمعها وقوة القاف وصحة جرسها ولاسيما وهناك الدال والسين. وذلك أن الدال لانت عن صلابة الطاء وارتفعت عن خفوت التاء. والسين أيضا لانت عن استعلاء الصاد ورقت عن جهر الزاى فعذبت وأنسلت.

وليس ينفرد ابن جنى بهذا التأثر وذاك النقل عن الخليل، فإنك لو تتبعت آثار الدارسين على اختلاف مناحيهم لوجدت هذه الفكرة وما ارتبط بها من قضايا مبثوثة هنا وهناك فى أعمالهم على فترات الزمن المختلفة. وإنما كان اقتصارنا هنا على أبى الفتح لتأكيد فكرة التأثر هذه بذكر واحد من أشهر خاصتهم الذين يرجى معهم أن يكونوا دائمًا مبتكرين لا مقلدين أو مرددين لأقوال غيرهم، كما هو الحال عادة عند عامة الباحثين منهم.

وتظهر النقطة الثانية التى تشير إلى معرفتهم العميقة بأسرار الأصوات وخواص لغتهم فى تلك الحقيقة الناصعة التى تقرر أن هذه الأصوات الستة هى أكثر الأصوات العربية **ورودًا فى أبنية الكلمة**، وبخاصة **الأبنية ذات الأصل الثلاثى**.

يؤكد هذه الحقيقة ما قام به علم اللغة الإحصائى فى السنوات الأخيرة. لقد جاء فى بحث إحصائى قيم أجراه الدكتور على حلمى موسى على «الجذور الثلاثية»

للكلمات العربية، كما وردت فى معجم «الصحاح»، أن أكثر الأصوات العربية وروداً فى هذه الجذور هى الأصوات التالية على الترتيب : «الراء – الميم – النون – اللام – الباء – العين – الفاء» ثم الدال – القاف – السين[1].

وهكذا نرى أن أصوات الذلاقة قد فازت بالمرتبة الأولى من حيث تسمية ورودها وكثرتها فى الاستعمال وفى بناء الأصول الثلاثية. وهناك سر لطيف ربما ينتفع به فى تفسير هذه الظاهرة. ذلك أن أصوات اللام والميم والنون والراء (لم نر) تنماز من بقية الأصوات الساكنة كما سبق أن قررنا ، بخاصة صوتية تقربها من الحركات وترشحها لهذه الرتبة : رتبة السبق والتفوق من حيث كثرة دورانها على اللسان وخفتها فى النطق. ونعنى بهذه الخاصة «قوة الوضوح السمعى». ولهذا الشبه الواضح أطلقنا نحن على هذه الأصوات الأربعة المصطلح «أشباه الحركات». كما سبق أن ذكرنا ويبدو أن علماء العربية قد أدركوا هذه الخاصة الصوتية المميزة فسموها بالأصوات المتوسطة»، وضموا إليها صوت العين وجمعوها جميعاً فى قولهم «لن عمر» أو «لم نرع» وضم العين إلى هذه الأصوات الشبيهة بالحركات (أو المتوسطة) له ما يسوغه. ذلك أن العين ـ كما قرر العلم الحديث ـ أضعف الأصوات الاحتكاكية احتكاكًا، وذلك يعنى اتساع مجرى الهواء نسبيًا عند نطقها، الأمر الذى يسمح بشىء من حرية مرور الهواء، وذلك وضع يقربها من الحركات بصورة أو بأخرى. وقد لحظ الخليل (وغيره) شيئاً مما نقول فى هذا الشأن حيث قرر أن بالعين «طلاقة ووضوح جرس»، ومن ثم وجب أن تشتمل عليها الأبنية الرباعية من الكلم التى تخلو من حروف الذلاقة.

---

(١) انظر : دراسة إحصائية لجذور مفردات اللغة العربية (الجذور الثلاثية) للدكتور على حلمى موسى (الجدول رقم ٧ ص ٣٥) مطبوعات جامعة الكويت رقم ٧ سنة ١٩٧١م.

أما الياء والفاء وهما الصوتان الباقيان من أصوات الذلاقة فربما سوغ كثرة ورودهما وكثرة استعمالهما النسبى فى الكلام العربى سهولة نطقهما وخفة تناولهما، لخروجهما من أدنى مخارج النطق، تلك المخارج التى تتمثل فى الشفتين فى حال الياء والأسنان العليا والشفة السفلى فى حال الفاء. وهى مخارج – كما ترى – لا تحتاج إلى عناء أو مجهود يذكر عند استخدامها فى عملية النطق، ولأمر ما كانت الكلمتان «بابا وماما» أولى الكلمات أو من أولى الكلمات التى يبدأ الطفل بها حياته اللغوية، وذلك أمر معروف مشهور.

ووقوع الدال والقاف والسين فى المرتبة الثانية من حيث كثرة الورود والاستعمال له ما يفسره ويوضح أسراره. لقد تكفل علماء العربية أنفسهم بهذا التفسير وذاك التوضيح، حيث قرروا أن هذه الحروف هى الأخرى لها خواص صوتية تؤهلها لأن تقع هذا الموقع التالى لحروف الذلاقة والسابق لبقية الأصوات. فهذه الحروف الثلاثة تنتظم صفات تقربها من صفات حروف الذلاقة وتجعلها شبيهة بها. ففى القاف قوة وصحة جرس، كما قال ابن جنى. وفى الدال عذوبة ولين ففاقت أختيها التاء والطاء. أما السين فقد «لانت عن استعلاء الصاد ورقت عن جهر الزاى فعذبت»، وخف نطقها لهذه الصفات. ومن ثم كانت القاف والدال والسين أصواتًا صالحة لأن تحل محل أصوات الذلاقة فى الكلمات الخالية منها، كما قرر علماء العربية أنفسهم.

فلله در هؤلاء القوم الذين استطاعوا بحسهم المرهف أن يقفوا على ما وصل إليه العلم الحديث، ممثلاً فى تلك النتائج التى وضعها بين أيدينا ذلك الجهاز العلمى الخطير المعروف بالكمبيوتر أو «الحاسوب»، كما يسميه بعض الدارسين.

* * * * * *

معهد البحوث والدراسات العربية